

زهير بن أبي سلمى شاعر جاهلي ذو الحكم

بقلم: محمد إلهام صالح

(مدرس تاريخ الأدب العربي بكلية الآداب بالجامعة الإسلامية الحكومية علاء الدين وحومانيورا بمكاسر)

Abstrak

Zuhaer bin Abi Sulma adalah salah satu tujuh dari penyair jahili yang terkenal, karya syairnya diabadikan dengan tulisan tinta emas kemudian digantung di tirai penutup dinding Kabah, Zuhaer berbeda dengan penyair jahili yang lain pada zaman jahliyah karena syair-syairnya betul-betul diteliti sebelum diekspresikan ke khalayak ramai, Zuhaer juga terkenal karena kandungan makna syairnya penuh kata hikmah.

كلمات المفتاح: الحكم, الشاعر, زهير.

I. تمهيد

تعتبر أشعار زهير بن أبي سلمى مملوءة بالحكم الحكيمة التي يختلف بها أشعار المعاصرين الجاهليين به كأمرؤ القيس والنابغة الذبياني وطرفة ابن العبد¹ وكانت أشعار زهير بن أبي سلمى لها خصائص ومميزات تخالف غيرها من أشعار الجاهليين من التنقيح والروية حتى لا عجب أن زهير يمثل طبقة من الشعراء كان يسمون عبيد الشعر، لأنهم لا يحبون الإرتجال بل ينقحون أشعارهم قبل عرضها². ومن هذه الجمل الوجيزة تعرض الأسئلة: من هو زهير؟ وكيف كانت حكم أشعاره وهل لها مميزات وخصائص؟ وكيف منزلته بين الشعراء الجاهليين؟

II. نشأته وحياته وبيئته الشعرية

هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني. فأبوه من قبيلة مزينة، وكانت تجاور في الجاهلية بني عبد الله غطفان حيث كانوا ينزلون في الحاجر بنجد شرقي المدينة وينزل معهم بنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان أحوال أبيه ربيعة. ويحدثنا الرواة أنه أقام فيهم زمنا مع أمه، وحدث أن أغار مع قوم منهم على طيء وأصابوا نعما كثيرا وأمواالا، ولما رجعوا لم ينفردوا له سهما في غنائمهم فغاضبهم وانطلق³ بأمه إلى قبيلته مزينة، ثم لم يلبث أن أقبل في جماعة منها مغيرا على عشيرة أحواله.

ولم يكادوا يتوسطون ديارها حتى تطايروا راجعين وتركوه وحده , فأقبل حتى دخل في أخواله , ولم يزل فيهم حتى توفي ومن ثم ولد له زهير وأولاده⁴ في منزله بنى مرة وبني عبد الله بن غطفان .

ليس بين أيدينا شئ واضح عن نشأة زهير سوى أنه عاش في نازل بنى عبد الله بن غطفان وأخواله بن بنى مرة الذيبانيين وفي كنف خاله بشامة بن الغدير , وكان شاعرا مجيدا كما كان سيذا شريفا ثريا , وكان بشامة من أحزم الناس رأيا فكان قومه يستشير هو يصدر عن رأيه , ولم يكن له ولد , فلما حضرته الوفاة جعل يقسم ماله في أهل بيته وأعطى زهيراً نصيباً منه , ويروى أنه قال له إني أعطيتك ما هو أفضل من المال , فقال زهير : ما هو ؟ فقال له شعري⁶ وهو لم يرث عنه شعره وماله فقط , بل ورث عنه أيضاً خلقه الكريم .

وفي أخباره أنه تزوج من امرأتين : أم أوفى وهى التى يذكرها كثيرا فى شعره , ويظهر أن المعيشة لم تستقم بينهما , فطلقها بعد أن ولدت منه أولادا ماتوا جميعا . والثانية التى تزوجها من بعدها هى كبشة بنت عمار الغطفانية , وهى أم أولاده : كعب وبجير وسالم , ومات سالم فى حياته وورثه ببعض شعره

وكان زهير يتحدث فى شعره طويلا عن حروب داحس والغبراء⁸ مشيدا بجرم بن سنان والحارث بن عوف سيدى بنى مرة اللذين حققنا دماء⁹ عبس وذبيان بعد أن طال عليهما الأمد فى تلك الحروب , إذ تحملا ديات القتلى , ويقال إنهما كانتا ثلاثة آلاف بغير أديها فى ثلاث سنين . واعتد زهير بهذه المنة الجليلة فأشاد بها معلقته . وظل طوال حياته يمدح هرما ويمجده .

ومن قصائده فى مدحهما معلقته المشهورة التى تبدأ بقوله :

أمن أم أوفى دمنة لم تتكلم	بجومة الدراج فالمثلّم
سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما	تبزل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله	رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا , لنعم السيدان وجدتما	على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عسا وذبيان بعدما	تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما : إن ندرك السلم واسعا	بمال معروف من الأمر نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن	بعيدين فيها من عقوق ومأثم

هذه الأبيات هى جانب من معلقة زهير , ذلك الجانب الذى يتضمن الأقوال الحكمية , فتبدأ هذه القطعة بذكر الحارث بن عوف وهرم بن سنان (ساعيا غيظ بن مرة) وذكر فضلها فى وقف الحرب وحجتها القائمة على أن المال شئ رخيص جدا إذا استطاع الإنسان أن يشتري به السلم .

ثم يلتفت الشاعر إلى المتحاربين فيخاطب الأحلاف (بنى أسد وبن غطفان - وهم بنو عيس وبنو ذبيان - وبنو طيء) , ويخص بالذكر بنى ذبيان لأنهم فيما يبدو كانوا أقدر من غيرهم على وقف الحرب لو ارادوا. والشاعر هنا يخوف المتحاربين من نتائج الحرب مع أن نتائج الحرب تكون في العادة غير مجهولة خسارة للفريقين المتحاربين .

وتدل الدلائل على أنه عاش في سعة من المال مما ورثه عن خاله وما كان يقدم له هرم وغيره من أشرف قبيلته من أموال ولعل ذلك ما جعل شعره يخلو من الفحش والعهر , فهو من ذوق آخر غير ذوق امرئ القيس المفتون بالنساء وتصوير مغامراته القصصية معهن , ومن غير شك كان وثنيا مثله مثل قومه , وإن كنا نلاحظ عنده بعض أبيات يؤمن فيها باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب , يقول في معلقته :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم
ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر
ليوم الحساب أو يعجل فينقم
وإذا صحت نسبة البيتين إليه كان ذلك دليلا على أنه أحد من تحنقوا في
الجاهلية وشكوا في دينهم الوثني¹⁵ وأغلب الظن أنه لم يفارق دين قومه , إنما هي
خطرات كانت تمر به .

III. الحكم في أشعار زهير

كان زهير من الشعراء المقدمين في الجاهلية , فصيح الألفاظ يتجنب وحشى الكلام , سهل التركيب يرسل الكلام على السجية ولا يعاظم فيه , أى لا يدخل بعضه في بعض حتى تتعقد تراكيبه ويغمض معناها , وكان صادقا في ما يذكر في شعره.

وفنون زهير هي المديح والعتاب والهجاء والوصف والغزل والنسيب والحكمة. وها الأخير هو موضوع بحثنا وهو الحكمة في أشعار زهير , وكان زهير قد عاش عمرا طويلا فقد بلغ النضج عنده مبلغا كبيرا , ولذلك كثرت الحكمة في شعره , ومن أمثال معلقاته الحكمية في أشعاره ما يأتي :

سئمت تكاليف الحياة, ومن يعيش
رأيت المنايا حبط عشواء من تصب
واعلم ما في اليوم والأمس قبله
ومن لا يصانع في أمور كثيرة
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه

ثمّنين حولاً لا أباليك يسأم¹⁶
تمته ومن تخطئ يعمر فيهم¹⁷
ولكنني عن علم ما في غد عم
يضرس بانياب ويوطأ بمنس¹⁸
على قومه يستغنى عنه ويذمم¹⁹
يفره ومن يتق الشتم يشتم²⁰
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ومن هاب اسباب المنايا يئننه
 ومن يغترب يحسب عدوا صديقه
 ومن يجمع تكن عند امرئ من خليقة
 ومن يجعل المعروف في غير أهله
 وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكليم²³
 لسان الفتى نصف, ونصف فؤاده²²
 وإن يرق أسباب السماء يسلم²¹
 ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
 وإن خالها تخفى على الناس تعلم
 يكن حمده ذما عليه ويندم

وهذه الأبيات يسرد زهير عددا من الحكم على غير نسق معين , بل هو يجمع بعضها إلى بعض كما اتفق له عند النظم يذكر زهير أن الذي يعمر طويلا يسأم العيش , ويرى أن الموت لا يقصد أن يأخذ فلانا وفلانا , وإنما هو يضرب يمينا أو شمالا على غير هدى , فمن اتفق أن يقع تحت ضربته مات . الموت يخبط في الناس كالناقة العمياء , فمن أصابه أهلكه , ومن أمهله لقي الهرم والمتاعب , والموت واقع ولو اتخذ المرء لنفسه حبالا إلى السماء .

ويرى زهير بعده بأن الناس يتعايشون بالمصانعة- بالمدارة والرياء وأن الناس يحبون من يستفيدون منه , فإذا بخل الغني بماله على قومه المحتاجين ذموه , ومع العلم بأن معلقة زهير هذه دعوة عالية إلى السلم , فإنه في حكمه التي في آخر المعلقة يؤكد صواب الرأي الجاهلي في الظلم (الإعتداء على الأقوياء حتى لا يعتدى الأقوياء عليك) . ثم يرى زهير بأن من تحلى بالوفاء لقي الحمد والثناء , ومن ذاق حلاوة الإحسان لم يتردد في إسدائه ومن يصنع في المعروف في غير أهله يقابل معروفه بالذم ويعقب الندامة ومن لا يحم حوزته بالسلاح يكن غرضا للعدوان , وإذا لم يكن المرء قويا قادرا على ظلم الناس فإن الناس يظلمونه و من يغترب عن قومه تختلط عليه الأمور فلا يعرف عدوه من صديقه حتى يستقر على تجربة . ومن لا يحترم نفسه لا يحترم . ومن يخف من أخلاقه شيئا فلا بد أن يظهر , ثم إن المرء ما هو إلا صورة وإنما يكشفه ويظهر حقيقته أمران : القلب واللسان .

وأبيات زهير التي أوردناها توضح خصائص أسلوب الشاعر وتصور شخصيته . وإذا درسناها اتضحت لنا الأمور الآتية :

1. يبدو زهير من شعره شاعرا هادئا رقيق الكلام وحلوه ثم هو مسالم يكره الحرب ويعشق السلام وهو أخيرا حكيم قوى التجربة يتحلى بقدر عظيم من الأفكار الصادقة .

2. يظهر في شعر زهير أثر التنقيح والروية كالنابغة - من عبيد الشعر , أي من الذين ينقحون شعرهم . ولقد كان زهير يبالي في ذلك التنقيح حتى سمي النقاد قصائده " الحوليات " لأنه يقضى حولا (عاما) كاملا في نظم القصيدة الواحدة ينظمها في أربعة أشهر وينقحها في أربعة أشهر ثم يعرضها على إخوانه في أربعة أشهر (يرى رأيهم فيها ويعيد تنقيحها) .

3. تشبيهات زهير وصوره منتزعة من البيئة البدوية كقوله : خبط عشواء , يضرس بأنياب , يوطأ بمنسم .

IV. منزلة زهير عند الشعراء

يعتبر زهير من شعراء الطبقة الأولى في العصر الجاهلي , وكان يقال : " أشعر الشعراء امرؤ القيس إذا ركب , وزهير إذا رغب , والنابعة إذا رهب , والأعشى إذا طرب " . كما قلنا إن زهير من عبيد الشعر وهم فئة من الشعراء كانوا ينقحون أشعارهم ولا يرتحلون إرتجالاً . ولهذا جاءت أساليب زهير مختارة منتقاة لا يقع فيها السقط ولا الضعف وقد سميت قصائده الطوال بالحوليات لأنه كان لا يفرغ من نظم القصيدة وتنقيحها وعرضها وإذاعتها في الناس إلا في حول واحد .

وكان الدكتور حسن شاذلي فرهود وإخوانه من الأساتذة في جامعة الملك عبد العزيز يقول إن المسلمين يعجبون بزهير وشعره لما فيه من أفكار فاضلة توافق تعاليم الإسلام ولما فيه من لهجة صادقة لا تعرف المبالغة.²⁴ فكان عمر رضى الله عنه يذكر زهيراً فيقول: " كان لا يعاظم وكان يتجنب وحشى الكلام ولم يمدح أحداً إلا بما فيه " ²⁵ وكان عمر رضى الله عنه يعجب بيته الذى قسم فيه بينة الحقوق وهو قوله: " فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء " وهو يعنى أن هناك ثلاث طرق لإثبات الحق وهى إما اليمين أو المقاضاة عند شيوخ القبائل أو البينة الواضحة. ومما ينسب لعمر قوله حين قرأ هذا البيت : " لو أدركته لوئيته القضاء لحسن معرفته ودقة حكمه " ²⁶ .

V. الخلاصة

بعد استطراد كلامنا الطويل عن زهير وأشعاره الحكمية وخصائصه ومميزاته فتأتى الخلاصات الآتية منها:

1. كان زهير أحد فحول الشعراء المشهورين في العصر الجاهلي وهو أحد الشعراء السبعة الذين كانت أشعارهم مكتوبة بماء الذهب معلقة على أستار جدار الكعبة .
2. كانت أشعار زهير تتضمن كثيراً من الحكم التي تؤثر قرائها .
3. تبدو في شعر زهير نزعة من التدين ولعلها هى التي أكسبته الصدق في مدحه والوضوح في أفكاره .

التعليقات الختامية:

- ¹ هم الثلاثة من الشعراء السبعة الجاهليين النابغين المشهورين الذين كانت أشعارهم مكتوبة بماء الذهب معلقة على أستار الكعبة وقيل بل سميت بالمعلقات لأن الناس علقوها في أذهانهم ، أي حفظوها ولعل هذا الرأي هو الأوجه لأن المسلمين حين فتحوا مكة وطهروا الكعبة لم يرد عنهم في كتب السيرة ذكر للمعلقات. وللمعلقات قيمة أدبية عظيمة ، وذلك لأنها تصور البيئة الجاهلية والحياة الجاهلية أوضح التصوير وأتمهله . أنظر الدكتور شكري عباد ، الأدب نصوصه وتاريخه ، المملكة العربية السعودية: وزارة المعارف ، الطبعة الأولى ، 1975، ص 21 ، وكان أربع منهم وهم عنتر بن شداد والأعشى والخنساء وعمرو بن كلثوم. أنظر السيد أحمد الهاشمي ، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء ولغة العرب ، القاهرة: دار الفكر، جزء 2، د.س، ص 500 و دكتور شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، القاهرة : دار المعارف ، الطبعة الثامنة، 1960، ص 230-233
- ² الدكتور عمر فروخ، المنهج الجديد في الأدب الحديث، بيروت: دار العلم، الطبعة الأولى، دون سنة، ص 59
- ³ دكتور شوقي ضيف، المرجع السابق، ص 300
- ⁴ ومن يتتبع القدماء في درسه لهم يجدهم يلاحظون أن زهيراً خرج من بيت شعر، إذ كان زوج أمه أوس بن حَجَّجَ شاعراً، وكذلك كانت أخته شاعرة ، وكان ابنه كعب شاعر النبي وهو مدحه مدحا مشهورا حتى تسمى أشعاره به قصيدة بردة لإعطاء النبي بردته الذي يلبس به فرحا عليه ، ولكعب أخ يسمى بجيرا كان شاعرا صحابيا جليلا . وإذا استمرنا وجدنا لكعب أبناء وأحفاداً من الشعراء . أنظر الدكتور شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، مصر: دار المعارف ، الطبعة السابعة، د.س ، ص 25
- ⁵ وكانت ذبيان وغيرها من قبائل غطفان تتعبد في الجاهلية العزى ، ويقال إنها كانت شجرة أقامت حولها كعبة كانت تحج إليها ، ولقدى القرابين وقد هدمها خالد بن الوليد بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وربما قال الرواة إنها شجرات ثلاث ، وقد يقولون إنه كان في الكعبة وثن ، وأكبر الظن أن هذا هو الصحيح فقد كان فيها وثن العزى ، وكان من حوله شجرات يقدها . ومهما يكن فقد كانوا وثنيين، وظلوا على وثنتهم إلى ظهور الدين الحنيف . أنظر تاريخ العرب قبل الإسلام للشیخ الجواد كما نقل به الدكتور شوقي ضيف، المرجع السابق، ص 301
- ⁶ أغاني ، دار الكتب، جزء 10، ص 312 كما نقله دكتور شوقي ضيف ، الشعر الجاهلي، المرجع السابق ، ص 302
- ⁷ نفس المرجع
- ⁸ كانت الحرب قد نشبت بين بني عيس وبين بني ذبيان بسبب اختلاف على سباق بين الحليل . وقد عرفت هذه الحرب بحرب داحس والغبراء (داحس والغبراء فرسان مذكر ومؤنث) وقد امتدت العداوة من أجل هذه الحرب بين قبيلة عيس وقبيلة ذبيان أربعين سنة أنظر الدكتور عمر فروخ ، المرجع السابق ، ص 59
- ⁹ كانت الديات ثلاثة آلاف بعير أديها في ثلاثة سنين . دكتور شوقي ضيف ، المرجع السابق ، ص 303
- ¹⁰ ساعي غنظ من برة = الحارث بن عوف وهم بن سنان (سعييا في الصلح بين القبيلتين)، تيزل (تشقق) ما بين العشيرة بالدم (ان القتل الذي قتلوا من القبيلتين جعلوا العداوة بين القبيلتين شديدة) أنظر الدكتور عمر فروخ، المرجع السابق، ص 59
- ¹¹ البيت = الكعبة
- ¹² السحيل : الحبل إذا كان قتله ضعيفا (كناية عن أيام اليسر والسلم) والميرم : الحبل إذا كان قتله شديدا (كناية عن أيام الحرب والضيق). نفس المرجع
- ¹³ منثم: عطارة (بائعة العطر) ، دقوا بينهم (غمسوا أيديهم في) عطر (إشتروه من) منثم : أقسموا على الإستمرار في الحرب . نفس المرجع ، ص 60
- ¹⁴ قلت: إذا استطعنا أن نقر السلم بملغ من المال (مهما كان كبيرا) كنا الراجحين لأننا نكون قد أنقذنا نفرا كثيرا من القتل
- ¹⁵ انظر في ذلك الخبر لابن حبيب ص 238 حيث يذكر أنه كان ممن حرموا على أنفسهم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام كما نقله دكتور شوقي ضيف ، المرجع السابق ، ص 303
- ¹⁶ رأيت الموت يتناول الناس من غير تمييز بينهم كما تمشي الناقة العشواء (الضعيفة البصر) فمن اتفق له حادث موت مات صغيرا أو شابا ، ومن لم يتفق له ذلك عاش حتى يهرم . أنظر الدكتور عمر فروخ، المرجع السابق، ص 60
- ¹⁷ عم : أعمى
- ¹⁸ يضائع : يداري ، يضرس : يمضغ . يوطأ بمنسم : يداس بأرجل الإبل
- ¹⁹ من يبذل ماله ليصون عرضه يبق عرضه موفورا (كريمًا مصونا) ، يتقى : يتجنب
- ²⁰ من لم يدافع عن حوض الماء (كناية عن المال والعرض ، لأن الماء آمن شئ في الصحراء والبادية معا) بالسلاح ، يهدم حوضه لكثرة من يجيئ إليه للإستقاء منه . ومن لا يعتدي على الناس (يحارهم) يعتدى الناس عليه . الظلم (حسب معناه في الجاهلية) هو أن تبدأ الآخرين بالحرب . نفس المرجع ، ص 61
- ²¹ من حاول أن يتجنب الحوادث التي تؤدي عادة إلى الموت (كالحرب والسفر والمرض) نالته تلك الحوادث ولو صعد إلى السماء . نفس المرجع

- ²² خليقة : خلق , حالها : ظنها
²³ كائن : كثيرا , ربما أبصرت رجلا صامتا فأعجبك , فإذا تكلم زاد مقامه في عينك أو نقصت قيمته عندك
²⁴ الدكتور شكرى عياد , المرجع السابق . ص 86
²⁵ نفس المرجع
²⁶ نفس المرجع

المراجع

- الدكتور شكرى عياد , الأدب نصوصه وتاريخه ., المملكة العربية السعودية: وزارة المعارف , الطبعة الأولى , 1975.
- السيد أحمد الهاشمي, جواهر الأدب فى أدبيات وإنشاء ولغة العرب., القاهرة: دار الفكر, جزء 2, د.س.
- دكتور شوقى ضيف , العصر الجاهلى., القاهرة : دار المعارف, الطبعة الثامنة, 1960.
- _____ , الفن ومذاهبه فى الشعر العربى., مصر: دار المعارف, الطبعة السابعة, دون سنة.
- الدكتور عمر فروخ, المنهج الجيد فى الأدب الجديد., بيروت: دار العلم, الطبعة الأولى, دون سنة.